الفصل الثامن عشر
تاريخ وتطور المكتبات العامة في أوروبا حتى أوائل القرن العشرين

بروز المكتبات العامة :

بينما كانت المكتبات الأكاديمية تمر في تطور مطرد ثابت مستمر للانتقال من كونها مجرد «مخزن للكنوز»، إلى مراكز تستعمل بشكل مفيد من أجل إجراء البحوث في جميع أرجاء أوروبا، فإن المكتبات العامة الأوروبية لم تمر في نفس خط التطور خلال نفس الفترة، وإنما سارت في خط تطوري مغاير، ولا يمكن ملاحظة الملاحظة نفسها على المكتبات العامة. هذا وإن إحدى المشكلات الأساسية التي تواجه الباحث في الموضوع هي التعريفات المختلفة التي يقدمها الباحثون مختلفو المشارب والنزعات والثقافات لكلمة «عامة» كما تفهم في أوروبا. ذلك أن هذا المصطلح «العامة» يعني خلال نفس الحقبة في بعض الأماكن «شيئاً ليس خاصاً»، على حين كان يعني في أماكن أخرى في أوروبا شيئاً عاماً قريباً من المفهوم الأمريكي؛ والمعنى الأمريكي الحديث للمصطلح نفسه : هو فتح باب المكتبة للجميع بدون استثناء، ودعمها بأموال الضرائب العامة وإدارتها على أنها مؤسسة ذات نفع عام. كذلك يجب أن نلاحظ أن مختلف حكومات الدول لم تنتبه إلى المكتبات العامة ولم تولها العناية الواجبة بها إلا عندما بدأت هذه المكتبات تأخذ دوراً إيجابياً في سياسات البلد الموجودة فيه. وقد كان هناك اعتبارات كثيرة مختلفة أدت إلى هذا التطور وإلى النظر إلى المكتبة العامة بهذا المنظار في كثير من البلدان الأوروبية. ففي كثير من الدول، ولا سيما في الدول ذات القيادة الجماعية الديكتاتورية المتسلطة، ينظر إلى المكتبة ككل، وإلى المكتبة العامة بشكل خاص، على اعتبار أنها مركز لإيصال المعلومات والأخبار التي تريد الدولة إيصالها إلى الجمهور، وذلك لمصلحة الدولة بالدرجة الأولى وحسب نظرتها للأمور وفلسفتها. وينظر إلى المكتبة العامة بشكل خاص في دول أخرى، ولا سيما الدول ذات النظام الديموقراطي الحر، على أنها مؤسسة لاستقبال الأخبار

والمعلومات بشكل حر وبثها وإذاعتها ونشرها بين الجمهور بشكل حر تطوعي، كذلك فإن تطور المكتبات العامة يختلف في أوروبا، في تنوعه وتعقيده من مكان إلى مكان.

وقبل أن نمضي في بحث المكتبة العامة وتاريخها وتطورها في مختلف الأقطار الأوروبية؛ لابد من تحديد مفهوم المكتبة العامة وما المقصود من هذا الاصطلاح؟.

المكتبة العامة هي مؤسسة ثقافية تمتلكها الدولة وتفتح أبوابها جهاراً للاستخدام العام الحر من جانب الجميع، وتموَّل عن طريق الضرائب العامة. فهي بهذا المعنى الاصطلاحي الضيق لم تظهر على الساحة الأوروبية إلا في أواخر القرن التاسع عشر، وكثير من مفاهيمها من إنتاج قرننا الحالي الذي هو القرن العشرين. وحتى الآن نجد في أوروبا كثيراً من المكتبات العامة «تفتح أبوابها لفئة خاصة من الناس»، وقليل من هذه المكتبات يمول عن طريق الضرائب العامة. ونستثني من الاصطلاح «أوروبا» بريطانيا التي تطورت فيها المكتبة العامة تطوراً مغايراً كل المغايرة لما تم في أوروبا، وأقرب لما تم في أمريكا، وتقع المكتبات العامة في أوروبا في فئتين كبيرتين، تسمى الأولى «مكتبات البحث» أو «المكتبات العلمية»، وتسمى الفئة الثانية «المكتبات الشعبية». ونجد في الأولى مكتبات المصادر الكبيرة التي تمتلكها الدولة أو الجامعات أو الهيئات والمؤسسات العلمية. أما مكتبات الفئة الثانية فتختلف من بلد إلى بلد بوضوح تام.

وتقوم المكتبة العامة هنا بدور مركز الإعارة دون محاولة جادة للقيام بخدمة المصادر أو بناء مجموعات ضخمة، كما يحدث بوضوح تام وتركيز كبير في مكتبات الولايات المتحدة العامة ومكتبات إنكلترا العامة. فالمكتبة العامة الأوروبية تقتصر فقط على عملية الإعارة، كالتي توجد في المكتبات الأمريكية، ولا تتخطاها إلى غيرها من العمليات الأخرى مثل خدمة المصادر وإرشاد القراء والدراسة الجادة.

تمثل المكتبات العامة الأوروبية أحد مصادر الثقافة الإنسانية الكبرى في أوروبا الحديثة، وعلى الرغم من أنها تختلف في أهميتها وحجمها من بلد إلى بلد، إلا أنها جميعاً تشترك في صفة واحدة، وهي أنها أكثر المكتبات شعبية في البلد الذي توجد فيه، وتخدم أفراد الشعب أكثر مما تخدمه أية أنظمة مكتبية أخرى.

ولقد تطورت فكرة المكتبة العامة المدعومة بأموال الضرائب العامة المفتحة الأبواب للجميع بدون استثناء عبر العصور، وتحت تأثير عدد من العوامل الهامة. ذلك أن الثورة

الصناعية التي حدثت في أوروبا جذبت أعداداً غفيرة جداً من العمال الصناعيين إلى المدن. وقد برزت مشكلة تثقيف هؤلاء العمال ثقافة مهنية مسلكية وثقافة عامة مما أدى إلى تأسيس مكتبات مهنية ومكتبات عامة. كذلك انتشرت القراءة والكتابة في أغلب دول أوروبا وتقلصت الأمية فيها، مما أدى إلى تزايد عدد البشر القادرين على القراءة والراغبين فيها. ولقد أدى إنقاص ساعات العمل إلى توفر وقت لدى عدد كبير من الأفراد، فرؤي أن من الأفضل أن ينفقوه في المطالعة للمتعة والتسلية والثقافة. ولقد ساد الاعتقاد أن الكلمة المطبوعة قادرة ، إلى حد كبير، على ضبط السلوك الاجتماعي والسياسي. لذلك بدأت الدول تركز على المكتبات العامة باعتبارها إحدى الوسائل لضبط هذا السلوك وتوجيهه.

وهناك اختلاف بين الدول في النظر إلى هذا الموضوع، وتركز الدول ذات الأنظمة الديكتاتورية على هذه النواحي أكثر بكثير من تركيز الدول ذات النظام الديموقراطي.

ويمكن اعتبار مكتبات المصادر التي كانت منتشرة في أغلب المدن الأوروبية الرئيسية منذ القرن السادس عشر، السلف المباشر الذي تحدرت عنه المكتبات العامة في أوروبا الحديثة وتطورت، لقد تأسست هذه المكتبات المصدرية بوساطة عدة طرق، لعل أشهرها، أن تؤسس مثل هذه المكتبة بوساطة منحة تقدمها مكتبة خاصة، أو بوساطة تحويل المكتبة الديرية أو الكاتدرائية إلى مكتبة مصدرية تفتح أبوابها لاستقبال الجمهور بشكل عام. ومهما يكن أصل هذه المكتبات فقد كان نموها وتطورها بطيئاً بين سنتي ١٥٠٠ و١٩٠٠م، وذلك بسبب ويلات الحروب وسوء المكان وقلة المال وفقدان المتخصصين. وكانت تفتح أبوابها عدداً قليلاً من الساعات في اليوم الواحد، ولم تكن مجموعاتها تساعد على المطالعة الحرة وإنما كانت مجموعاتها مغرقة في التخصص بحيث لا يستطيع استعمالها إلا أفراد قلائل من الباحثين المتخصصين. وكان كثير من المهتمين لا يرون بهذه المكتبات شيئاً أكثر من مجرد مجموعة من الكتب القليلة الأثرية التي يجب حفظها ولا فائدة منها.

تاريخ المكتبات العامة في فرنسا :

إن تاريخ المكتبات العامة في فرنسا وتطورها نموذجي لما حدث وجرى في غيرها من بلدان أوروبا الغربية ـ باستثناء بريطانيا. فقد تأسس في عدد من المدن المهمة في فرنسا خلال القرن السادس عشر عدد من المكتبات التي وصفت أنها عامة، ولكنها لم تكن إلا مجرد مكتبات مصدرية مقرها دار الحكومة.

فقد تأسست في ليون مثلاً سنة ١٥٣٠م «مكتبة المدينة» وتأسس شبيه لها في غيرها. وكان اللاهوت المسيحي هو الموضوع الرئيسي المسيطر على مجموعات الكتب التي وجدت في تلك المكتبات. ولم يوجد في فرنسا كلها قبل الثورة الفرنسية شيء اسمه خدمة مكتبية عامة. ولم يبدأ تاريخ المكتبات العامة في فرنسا إلا مع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

ولقد حصلت في فرنسا تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية هامة رافقت وتبعت الثورة وهروب نابليون الأول (١٧٨٩–١٨١٥م) وأثرت تأثيراً عظيماً على المكتبات والمؤسسات التربوية. فقد صودرت في فرنسا جميع مكتبات الأديرة والكنائس والنبلاء ووضعت في أماكن معينة كمستودعات للكتب في عدد كبير من مدن فرنسا. وقد فتحت هذه الأماكن أبوابها للجمهور ولكن فائدتها كانت ضئيلة جداً بسبب تضرر الكتب وموضوعاتها وسوء الأماكن الموضوعة بها. ولذا لا نعجب إذا علمنا أن هذه المكتبات قلما استعملت وأهملت، وبعد فترة بيعت كتبها بأوكس الأثمان.

ومع ذلك فقد وجد في حدود سنة ١٨٢٠ في أغلب مدن فرنسا المهمة مكتبات بلدية لا بأس بها، ولكن أماكنها كانت سيئة وغير مناسبة إطلاقاً. وقد اتبعت الحكومة الفرنسية بعد فترة تجربة أخرى في حقل المكتبات وهي تأسيس مكتبات عامة ملحقة بالمدارس، ولكن التجربة لم تنجح وباءت بالخذلان.

ولقد افتتح في باريس بعد سنة ١٨٥٠ عدد قليل من المكتبات شبه عامة مدعومة من قبل الدولة، ووصل عددها في باريس سنة ١٩٠٨م حوالي ثمانين من هذا النوع، ولكن لم يوجد مكتبة عامة مدعومة مركزية. وتوسع هذا النظام ليشمل عدداً من المدن المهمة. وأغلب هذه المكتبات كان هزيلاً والمجموعات سيئة التنظيم.

وقد أثار هذا الوضع المحزن للمكتبات العامة في فرنسا عدداً من الكتاب نادوا بوجوب إصلاح الوضع وإيجاد خدمة مكتبية أفضل في فرنسا، على غرار ما هو جارٍ في كل من إنكلترا والولايات المتحدة. وقد وضعت خطط لإصلاح الوضع، ولكن نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م أوقف كل تطور في هذا المجال. وقد تضرر بعض المكتبات إبان الحرب في المناطق التي كانت مسرحاً للحرب. ولقد بدأت الدولة بعد الحرب تحاول إصلاح ما تضرر، وتأسس في فرنسا بين الحربين عدد من المكتبات العامة الحديثة بمساعدة

أمريكية.

وجرت في فرنسا جهود حقيقية لإصلاح وضع المكتبات العامة فقد تحسنت أحوال وشروط مكتبات الاعارة العامة في فرنسا كلها وأسس عدد كبير من مكتبات الأطفال والمكتبات المتنقلة وأوجدت المكتبات الكبرى فروعاً لها، وأسس عدد كبير من المكتبات في المصانع. وعلى الرغم من كل ما جرى أطلت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م على فرنسا وهي محرومة من نظام عصري للمكتبات العامة. ولم تصب المكتبات الفرنسية خلال الحرب الثانية بأضرار بليغة، ولكن تجمد نشاطها ووضعت عليها رقابة صارمة وصودرت المخطوطات الثمينة وأهملت.

وقد اعترفت الحكومات الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية بأهمية المكتبات العامة وأسست مكتباً وطنياً لهذه الغاية. ويوجد الآن في فرنسا أكثر من خمسمائة مكتبة عامة بلدية وقد جُهزت بعض أبنية هذه المكتبات بتسهيلات مكتبية حديثة متطورة لخدمة الأطفال والناشئة وأماكن لسماع المسجلات وغير ذلك. ومع ذلك تبقى خدمة المكتبات العامة في فرنسا هزيلة عاجزة إذا ووزنت مع مثيلاتها في أمريكا وأقسام من أوروبا. وإن قلة المكتبيين المتخصصين وانخفاض رواتبهم من أهم أسباب انخفاض سوية الخدمة المكتبية العامة في فرنسا.

تاريخ المكتبات العامة في انكلترا وتطورها

لقد أخذ تطور المكتبة العامة عبر القنال الانكليزي في انكلترا سمتاً مختلفاً عنه في فرنسا. فقد أصاب انكلترا والكتب والمكتبات خسارة كبرى نتيجة لحل الأنظمة الديرية واضطهاد الكتب والمكتبات الذي تم في القرن السادس عشر. ولقد شاهد القرن السابع عشر انتعاش المكتبات الجامعية ونمو بعض مكتبات الكاتدرائيات والمكتبات الخاصة. كذلك انتشر في هذا القرن تأسيس المكتبات الأبوية التي أسس أغلبها في المدن. وقد وجد في هذا القرن عدد من المكتبات امتلكتها البلديات، ولكن لا يمكن تسميتها إطلاقاً مكتبات عامة بالمعنى الحديث المفهوم من الكلمة. وفي أواخر هذا القرن وضعت بعض الأبويات في الاستعمال العام مجموعات صغرى من الكتب أهديت إليها. كذلك شاهدت أواخر هذا القرن حركة أدبية تطالب بالاهتمام بالكتب والمكتبات، إلى جانب جمعيات همها ترقية المعرفة الإنسانية ككل، وتركيزها على المعرفة المسيحية. فقد انتشر التعليم في إنكلترا في

أواخر هذا القرن ووجدت مجموعة من الناس تقرأ ليس فقط الكتب الدينية، وإنما بدأت تهتم بالأدب والمجلات والجرائد. وقد صدر في أوائل القرن الثامن عشر قانون الإيداع فساعد على نمو هذا التيار. وقد شاهد القرن عدداً من المصلحين الذين نادوا بالاهتمام بالمكتبات وسعوا في سبيل تأسيسها ونشرها، من أهمهم توماس بري Thomas Bray (١٦٥٦-١٧٣٠م) الذي ساعد في تأسيس مكتبات في المستعمرة البريطانية في أمريكا والمسماة ميريلاند وذلك من أجل تثقيف رجال الدين الذين يذهبون للخدمة هناك، كذلك ساعد في تأسيس عدد من مكتبات الأبويات في انكلترا والنهوض بالموجود منها وأسس ثلاث جمعيات لتساعده في هذا العمل وتكمله من بعده أهمها جمعية «زملاء بري» التي أسست ما يسمى بالمكتبات الثابتة في الأبويات، ووجد بها خدمة مكتبية وكان استعمال المواد حراً داخل البناء، أما الإعارة الخارجية فكانت تتم لقاء رهن مناسب.

ولقد شاهد القرن الثامن عشر بروز ونمو وتطور ثلاثة أنواع من المكتبات والخدمات المكتبية : مكتبات الأبويات وخدماتها، مكتبات الاشتراك أو كما تسمى أحياناً المكتبات الاجتماعية، ومكتبات الإعارة.

وإن مكتبات نوادي الكتب هي السلف المباشر لمكتبات الاعارة. وقد انتشرت نوادي الكتب بسرعة حتى وجد في لندن وحدها أوائل القرن الثامن عشر أكثر من ألفين من هذه النوادي، وكان التركيز في هذه النوادي على الموضوعات المعاصرة المهمة.

وقد انتشرت مكتبات الاعارة بسرعة في أواسط القرن الثامن عشر، وهذه أسسها بائعو الكتب على أسس اقتصادية محضة وانتشرت هذه المكتبات بسرعة في لندن وفي كثير من المدن الكبرى. وكانت تعير الكتب لقاء أجرة زهيدة أسبوعياً أو شهرياً. وقد زودت هذه المكتبات الجمهور بأغلب طوائفه بمادة قرائية شعبية. ولم ينقض القرن الثامن عشر حتى انتشر هذا النوع من المكتبات في كل مكان في الجزر البريطانية، وظل بعضها يعمل بشكل مفيد حتى القرن العشرين. ولم يتجاوز بدل الايجار في هذه المكتبات شلناً واحداً في الشهر.

ولقد شاهدت أواخر القرن الثامن عشر نشوء وتطور مكتبات الاشتراك، وهي تطور وتوسع طبيعي لنوادي الكتب الأقدم. فقد ازداد عدد القراء في تلك الفترة، وهي الفترة التي شاهدت بداية الثورة الصناعية في انكلترا ، ازدياداً ملحوظاً مما أدى إلى طلب متزايد

على مكتبات المجتمعات المحلية. ولقد كان أفراد الطبقة الوسطى التي اغتنت بالتجارة راغبين بالمطالعة وقادرين على الدفع من أجل القراءة والمطالعة، لذا ظهرت مكتبات الاشتراك لتقدم لهم الكتب والدوريات التي يريدونها والتي فيها بعض العمق. فقد شكل عدد من القراء الراغبين في المطالعة والاستزادة منها «جميعة مطالعة» مع مكتبة من أجل استعمال أعضاء الجمعية وحدهم. وكان هناك بدل اشتراك بالمكتبة مستقلاً عن بدل الاشتراك في النادي أو الجمعية، يدفع شهرياً أو سنوياً. وقد انتشر هذا النوع من المكتبات في أماكن كثيرة في انكلترا أواخر القرن الثامن عشر. وكانت الكتب فيها كتباً جدية عميقة أكثر منها كتباً ترفيهية. وقد دعم أفراد الطبقة الوسطى هذه المكتبات في المجتمعات المحلية. وكانت تدار هذه المكتبات من قبل لجان، وكان مكانها غالباً في غرفة أو قاعة مؤجرة لهذا الغرض ويدير شؤونها شخص مسؤول خلال عدد معين من الساعات في اليوم. ولكن حدث في منتصف القرن التاسع أن تمكن كثير من هذه المكتبات أن ينمو لدرجة أوجد لنفسه بناءً خاصاً مستقلاً وقدم قسماً كبيراً من الخدمات المكتبية العامة المعروفة، بل واستأجر أمين مكتبة متفرغاً براتب محدد. وتعد مكتبة لندن التي لا تزال في الوجود والتي أسست سنة ١٨٤١م أشهر مكتبة اشتراك، وبلغ عدد كتبها عند مفتتح هذا القرن أكثر من نصف مليون كتاب ولا تزال نشطة حتى أيامنا هذه. وهناك أمثلة بارزة كثيرة غيرها.

مكتبات المعاهد المهنية والميكانيكية

إن انتشار الثورة الصناعية وهجرة أبناء الريف إلى المدن وتضاعف عدد العمال في المصانع، وسوء الأوضاع المعيشية التي عاناها هؤلاء والرغبة في تثقيفهم ورفع مستواهم المهني، مع دوافع أخرى، جعلت بعض المحسنين يؤسسون «معاهد فنية» لفائدة العمال وصغار الكسبة الذين عجزوا عن تقديم الاشتراك اللازم للاشتراك بمكتبات الاشتراك. وقد ألحق بهذه المعاهد مكتبات ذات محتوى مهني وروحي لقاء رسم اشتراك ضئيل. ولعل أول مكتبة أسست من هذا النوع تلك التي أسست في سكوتلاندة. ولقد تأسس عدد من المعاهد الفنية مع مكتباتها في عدد من المدن في القرن التاسع عشر، وبلغ عدد مكتبات هذه المعاهد إبان عزها أكثر من ٧٠٠ مكتبة. ولم يعمر أكثرها إلا لفترة محدودة، ولكن قدر لبعضها أن يصبح فيما بعد مكتبة عامة أو أعطيت كتبها للمكتبات العامة.

لا يمكن إغفال دور مكتبات الأبويات والإعارة والاشتراك والمعاهد الميكانيكية

باعتبارها سابقة وممهدة الطريق أمام المكتبات العامة. فقد أثبتت أن هناك رغبة عارمة لدى جمهور كبير من الناس في المطالعة، وأن ذلك لا يسده إلا المكتبات العامة المجانية المفتحة الأبواب للجميع. كان ما مر من أنواع المكتبات تمهيداً وإرهاصاً بقدوم المكتبات العامة المجانية المفتوحة الأبواب لجميع المواطنين المدعومة بأموال الضرائب العامة.

إن حركة المكتبات العامة المدعومة المجانية ونجاحها في انكلترا حادثة من أهم الحوادث في تاريخ المكتبات في انكلترا. وقد أدت إلى تأسيس عدد كبير جداً من المكتبات العامة في أهم مدن انكلترا وايرلندا. ولكن لا بد من ذكر عدد من المكتبات التي وقفها أشخاص معينون وصفت أنها عامة، من أشهرها مكتبة تشيثام Chetham في مانشستر التي أسست سنة ١٦٥٣ ووقفت لجميع الباحثين والقادرين على الاستفادة منها.

كذلك لابد من ذكر جهود صموئيل براون المتوفى سنة ١٨٣٩م الذي فكر في إيجاد «المكتبة المتنقلة». فقد أسس مكتبة لها أربعة فروع مع أربع مجموعات من الكتب وتنتقل هذه المجموعات دورياً من فرع إلى فرع كل سنتين.

وقد انتشر هذا النوع من المكتبات وازدهر فترة من الوقت ثم انحط بعد وفاة براون ولم يلبث أن زال .

وإن تاريخ المكتبات العامة في انكلترا بدأ مع موافقة البرلمان الانكليزي سنة ١٨٤٧م على قانون بتعيين لجنة المكتبات العامة من أجل بحث أفضل السبل لتأسيس مكتبات عامة في البلاد. وقد قامت اللجنة بدراسة مكثفة للموضوع وقدمت تقريراً سنة ١٨٤٩م اقترحت فيه تأسيس مكتبات عامة مجانية في جميع أنحاء البلاد، وأن تمنح مجالس البلديات في المدن سلطة فرض ضرائب ذات معدلات منخفضة لتأسيس ودعم مكتبات المدن، وكان ذلك أساس قانون سنة ١٨٥٠م، وقد سمح هذا القانون للمدن التي يزيد عدد سكانها على مائة ألف نسمة أن تفرض ضرائب من أجل دعم المكتبات العامة.

ولقد أكمل هذا القانون بقوانين أخرى صدرت بعد ذلك وأمكن تطبيقها جميعاً بشكل جيد في أواخر القرن الماضي.

ووصل عدد المدن التي أسست فيها مكتبات عامة بموجب هذا القانون إلى ٣٠٠ مدينة وذلك سنة ١٩٠٠م .

ولقد منح أندروكارنيجي قرابة مليوني جنيه لبناء أبنية للمكتبات العامة في انكلترا ونفذ

ذلك خلال السنوات ١٩٠٠-١٩١٢م. وعلى الرغم من أن المكتبات العامة ظلت في بريطانيا هزيلة وغير مرضية وعدد موظفيها غير كافٍ حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى إلا أنها لبت حاجة ملحة للمطالعة .

وعلى الرغم من حربين عالميتين أصابتا إنكلترا، وعلى الرغم من الأزمة المالية الخانقة التي عاشتها ولا تزال تعيشها إنكلترا إبان هذا القرن، إلا أن الخدمة المكتبية العامة في انكلترا نمت وتطورت وتوسعت حتى شملت جميع أنحاء الجزيرة البريطانية وامتدت إلى جميع مناحي الحياة فيها.

ولقد صدر سنة ١٩١٩م قانون جديد للخدمة المكتبية العامة في إنكلترا. وقد أدى هذا القانون إلى زيادة ملحوظة في المخصصات المالية لخدمة المكتبة العامة وأوصل الخدمة المكتبية إلى مناطق ريفية لم تكن تجد لها سبيلاً. وعلى الرغم من الأزمة المالية الخانقة التي أصابت العالم بين سنتي ١٩٢٩ و١٩٣٤م إلا أن الطلب ازداد على المكتبات العامة. والمكتبات العامة البريطانية رائدة في حقل فروع المكتبات والمكتبات المتنقلة والخدمة المكتبية بالبريد للمستشفيات والمعاهد وفي حقل التعاون المكتبي. وقد أخذت القيادة في عالم المكتبات وضربت أمثلة تحتذى في هذا المجال.

كما وأن أهم ناحية في تطور المكتبات العامة في بريطانيا هو التغطية الوطنية. ذلك أن البرلمان البريطاني استطاع منذ البداية اصدار قوانين تطبق في جميع أرجاء البلاد. والعامل الهام والرئيسي الذي ساعد على التغطية الوطنية هو تطور المكتبة الوطنية المركزية التي أسست في لندن سنة ١٩١٦م. فقد تأسست هذه المكتبة سنة ١٩١٦م بمساعدة من كارينجي تحت اسم المكتبة المركزية للطلبة لتقوم بدور مركز للمعلومات البيبليوغرافية ووكالة مركزية لإعارة الكتب للطلبة والمعلمين. وقد تغير اسمها سنة ١٩٣٠م للاسم الحالي.

وتعد خدمة هذه المكتبة في لندن فريدة في بابها، فهي تشرف على إعارة الكتب للجميع وبشكل خاص للطلاب. وقد انشأت عدداً كبيراً من المكاتب الاقليمية لتقوم بدور الوسيط بين الطالب والمكتبة الوطنية المركزية. وهي رائدة في حقل التعاون المكتبي بين المكتبات البريطانية وبينها وبين غيرها من المكتبات في الدول الأخرى. وعندها مشاريع كثيرة متقدمة من أجل التعاون المكتبي والخدمة البيبليوغرافية، وتستطيع عبر أدواتها

البيبليوغرافية وفهارسها الموحدة أن تساعد في جعل أي كتاب موجود في أية مكتبة بريطانية تحت تصرف أي مواطن بريطاني وفي متناول يده. ولقد نظمت الخدمة المكتبية في لندن الكبرى أفضل تنظيم بحيث تخدم مجموع السكان. ويبلغ عدد فروع مكتبات لندن العامة ١٣٠ فرعاً فيها أكثر من خمسة ملايين كتاب وذلك في السبعينات من هذا القرن. ومن أهم منجزاتها بطاقات الإعارة التي تمنح للفرد ويستطيع بواسطتها أن يستعير من أية مكتبة أو فرع مكتبة في لندن الكبرى ما يشاء من مواد.

ولقد تضررت مكتبات إنكلترا ضرراً بالغاً بالقصف الجوي الألماني خلال الحرب العالمية الثانية، فقد دمر عدد كبير من المكتبات العامة في عدد كبير من المدن، وتضرر قسم آخر. وقدر ما فقدته انكلترا خلال الحرب من كتب بعشرين مليون كتاب. ولقد أعيد بعد الحرب بناء كثير من المكتبات على أسس جديدة حديثة وأصلحت أسس الخدمة المكتبية. وتدل الإحصاءات المعاصرة على أن كل ساكن في الجزر البريطانية ينال خدمة مكتبية عامة تصله حيثما كان ساكناً. ويوجد الآن في إنكلترا أكثر من خمسمائة وحدة مكتبات عامة إدارية مع مكتبات مركزية وأكثر من ألفي فرع وعشرين ألف فرع صغير وتدل الإحصاءات على أن حوالي ٣٠٪ من مجموع سكان الجزر البريطانية مسجل في المكتبات ومستعمل لموادها. وهذا يجعل الشعب البريطاني يأتي على رأس جميع شعوب الأرض في وعيه للقراءة واستفادته من المكتبة. ولا يمكن إنكار جهود جمعية المكتبات التي تأسست سنة ١٨٧٧م في هذا المجال، ويبلغ عدد أعضائها الآن ما ينوف على ١٥ ألف عضو وقد لعبت الجمعية دوراً رئيسياً في البحث المكتبي والنهوض بالمهنة وترقيتها وتحسين شروط الخدمة واستصدار التشريعات المناسبة والضرورية مما أدى إلى الرفع من مكانة المكتبيين والمكتبات ليس فقط محلياً وإنما في جميع أرجاء العالم.

تاريخ وتطور المكتبات العامة في ألمانيا

لقد كانت المانيا مركزاً لعدد من كبريات المكتبات في أوروبا حتى في زمن أبكر من سنة ١٥٠٠م وعلى الرغم من أن الحكومة كانت تمتلك هذه المكتبات، إلا أنها لم تكن تفتح أبوابها إلا لعدد محدود جداً من الباحثين، ولذلك لا يمكن اعتبارها أبداً مكتبات عامة بالمعنى الحديث للكلمة.

ولقد تأسس خلال القرن السادس عشر مكتبات تملكها البلديات في عدد من المدن

الألمانية، مثل اولم سنة ١٥١٦ ومكديبورغ سنة ١٥٢٥م. كانت هذه المكتبات عبارة عن مجموعات هزيلة من الكتب ذات المحتوى الديني اللاهوتي، وكان استعمالها والعناية بها قليلين. ولقد حث مارتن لوثر سنة ١٥٢٤م على تأسيس مكتبات عامة لتشجيع انتشار البروتستانتية.

ولم يشهد القرن السابع عشر كبير تقدم في حقل المكتبات العامة، على العكس أهمل الموجود منها ودمر قسم كبير منها بسبب الحروب التي نشبت طوال ذلك القرن. ولقد شاهد القرن الثامن عشر تأسيس مكتبات ملكية ومكتبات جامعات في ألمانيا هي أضخم مكتبات عرفتها أوروبا حتى ذلك الوقت. ولقد أصبحت مكتبات البحث هي النموذج الشائع في ألمانيا خلال القرن الثامن عشر. ولم يفكر أحد جدياً بضرورة ايجاد مكتبات شعبية تساهم في نشر المعرفة وتوصل الكلمة المطبوعة إلى عامة أفراد الشعب.

ولقد بدئ بتأسيس مكتبات الاعارة الشعبية في القرن التاسع عشر كما فعلت مدينة غروسينهين Grossenhain عندما أسست مكتبة اعارة سنة ١٨٢٨م وفتحتها للجمهور. ولقد بدأ في المانيا فتح المكتبات العامة على مقياس واسع بعد سنة ١٨٧٠م وتوحيد ألمانيا. فقد أسست جمعية نشر التربية الشعبية عدداً من المكتبات الشعبية بمساعدة الحكومات المحلية. وقد وصل عدد المكتبات في برلين وما حولها سنة ١٩٠٠م إلى حوالي ٢٨ مكتبة شعبية ذات أحجام مختلفة وتتجه بخدمتها إلى العمال.

ولقد بذلت جهود كبيرة في ألمانيا خلال القرن التاسع عشر من أجل نشر المكتبات العامة ورفع سوية الخدمة المكتبية، ولكنها لم تصادف كبير نجاح. وأخيراً افتتحت في برلين سنة ١٩٠٧م مكتبة مركزية وخطط لها أن تقوم بالاشراف والتوجيه على المكتبات الشعبية الموجودة، وتابعت نموها حتى الحرب العالمية الأولى حيث بلغ عدد كتبها ٣٥٠ ألف مجلد وتشرف على ١٣٠ مكتبة عامة وصالة قراءة خاصة.

ولم تؤثر الحرب العالمية الأولى على المكتبات الألمانية إلا تأثيراً محدوداً، ولكن مستوى الخدمة المكتبية انخفض إلى حد كبير في هذه المكتبات، وقد اهتمت جمهورية فيمار بالمكتبات الشعبية وحاولت تعميمها. وقد وجد في ألمانيا سنة ١٩٢٦م أكثر من ٣٥٦ مكتبة عامة شعبية، ولكنها كانت هزيلة صغيرة، وكان هناك هوة كبرى بين المكتبة الشعبية ومكتبة البحث.

وعندما استلم النازيون الحكم أهملوا المكتبات، ووضعت المكتبات العامة تحت الرقابة الصارمة وجعلت المكتبات جزءاً من جهاز الدعاية العام الذي همه تقوية ونشر العقيدة النازية وما تدعو إليه من بعث القومية الألمانية الشاملة.

ولقد تضررت جميع المكتبات في المانيا إبان الحرب العالمية الثانية بسبب غارات الحلفاء الجوية والمعارك البرية التي كانت المانيا كلها مسرحاً لها. فقد قدر أن المانيا خسرت أكثر من نصف محتويات مكتباتها من كتب، وقد دمر خلال تلك الحرب مخطوطات وكتب نادرة لا تعوض.

وإن قصة المكتبات العامة في ألمانيا الغربية بعد سنة ١٩٤٥م هي قصة بناء وإعادة بناء سريع فقد جددت حكومة ألمانيا الغربية كثيراً من أبنية المكتبات وبني كثير غيرها، وتحسنت كثيراً الخدمات المكتبية ومستوى ونوعية الكتب في المكتبات الشعبية. ويوجد في السبعينات من هذا القرن في المانيا الغربية أكثر من عشرة آلاف مكتبة شعبية تحوي ١٥ مليون كتاب وتعير في السنة ما ينوف على ٥٠ مليون كتاب. ومع ذلك فقد ثبت ان الألمان في ألمانيا الغربية استعاروا في السنة نفسها من مكتبات الإعارة التجارية أكثر من ٦٠٠ مليون كتاب مما يدل على أن المكتبات العامة لا تزال عاجزة عن تلبية حاجات الجمهور من القراءة الشعبية.

ويوجد الآن في المانيا الغربية اتجاهان قويان في حقل المكتبات العامة : مكتبات المصادر والبحث العامة، ومكتبات الشعب العامة. ولكل من هذين الاتجاهين أنصاره، ولكل جمعيته وأمواله ومخصصاته. وبشكل عام لا تزال الأموال المخصصة للمكتبات العامة غير كافية، وهناك نقص واضح في حقل الموظفين الفنيين المتخصصين.

ونجد اهتماماً متزايداً بالكتب والمكتبات في ألمانيا الشرقية وتطبق المفاهيم الشيوعية في هذا المجال. فقد أخرج من المكتبات كل ما هو مناهض للشيوعية وحل محلها كتب شيوعية أو لها صلة بالشيوعية وأصبحت قراءتها إلزامية تقريباً. وأصبحت المكتبات جزءاً من نظام الدعاية العام الذي تتبعه ألمانيا الشرقية : وهو نظام همه الدعوة للشيوعية والدفاع عنها ومهاجمة أعدائها.

تاريخ وتطور المكتبات العامة في روسيا

لقد أصبح سكان روسيا في أواسط هذا القرن من أكثر شعوب الأرض اهتماماً

بالمكتبات، إذا كانت الإحصاءات الروسية صحيحة. ولكن الوضع لم يكن هكذا. فقد ظلت روسيا حتى القرن السابع عشر تعبيراً جغرافياً ولم تختلف عما كانت عليه تحت حكم المغول. وكان النظام الإقطاعي هو السائد. ولم تعرف روسيا المكتبة العامة بالمعنى الحديث إلا في أواخر القرن التاسع عشر.

فقد تأسست في أوديسا سنة ١٨٣٧م مكتبة بلدية، وكذا في عدد آخر من البلدان. وذكر احصاء أصدرته الحكومة الروسية أن عدد المكتبات العامة في روسيا وصل سنة ١٩١٥م إلى خمسة آلاف مكتبة.

ولكن يلاحظ أن أغلبها لم يكن يحوي إلا مجموعات ضئيلة من الكتب وموضوعة تحت إدارة الحكومة مباشرة وعليها رقابة صارمة.

أصبحت الكلمة المطبوعة منذ الثورة الروسية سنة ١٩١٧م سلاحاً وأداة استخدمتها الحكومة السوفيتية استخداماً واسعاً جداً من أجل الدعاية للحزب الشيوعي ونشر الوعي الماركسي بين أفراد الشعب. ولقد توطدت رقابة الدولة على المكتبات مع استقرار الحكم الشيوعي، وبدأت المكتبات تنمو وتتوطد بسرعة مدهشة سواء بالعدد أم بالحجم. فقد أسست مكتبات مركزية في عواصم الجمهوريات السوفييتية وأسست مكتبات بلديات في المدن الكبرى والمتوسطة. وقد زاد عدد الكتب في مكتبات روسيا العامة من ١٠ ملايين قبل الحرب العالمية الأولى إلى ١٢٥ مليون سنة ١٩٣٤م، وزاد عدد القراء في نفس الفترة من ١٢٠ ألف إلى ١٥ مليون. وأسست مكتبات في المصانع والمزارع الجماعية وفي معسكرات العمل الجماعي وحتى في محطات قطار سيبيريا. وكذلك أسست غرف مطالعة في معسكرات الجيش ومراكز الأسطول.

ولقد تضررت المكتبات بشدة وعنف في الأماكن التي اجتاحها الألمان وفي جميع المدن الكبرى التي تعرضت للقصف كموسكو ولينينغراد ومنسك... ولكن بدأت بعد الحرب حركة إعمار واسعة وبنيت أبنية جديدة حديثة بلغ حجم بعضها حداً واسعاً جداً. وتأسست بعد الحرب مكتبات عامة خاصة بمشوهي الحرب.

ولقد وضعت المكتبات، في السبعينات من هذا القرن، تحت إدارة مركزية في موسكو وتتبع المكتبات العامة وزارة الثقافة. وتأتي مكتبة لينين الدولة في موسكو على رأس المكتبات العامة. وهناك مكتبات الأقاليم والمدن ومكتبات المناطق الريفية ومكتبات

الاتحادات التجارية والمزارع الجماعية والمصانع ومكتبات الأطفال العامة.

وتذكر الإحصاءات الروسية الحديثة أن الاتحاد السوفيتي امتلك في أواخر الستينات من هذا القرن حوالي ٤٠٠ ألف مكتبة من جميع الأنواع. غير أن هذه الإحصاءات تحتاج إلى شرح كبير. ذلك أن كثيراً من هذه المكتبات صغير إلى حد أن المكتبة لا تحوي إلا عدداً محدداً من الكتب وتفتح عدداً قليلاً من الساعات يومياً، ويقوم بإدارتها شخص متطوع. كما وأن قسماً كبيراً من الكتب هي نسخ مكررة بأعداد هائلة من أعمال المؤلفين الشيوعيين من أمثال ماركس وأنجلز وغيرهما.

ومع ذلك وإذا أدخلنا في اعتبارنا امكان المبالغة في الاحصاء، تبقى صورة المكتبات العامة في روسيا مثلاً يجدر ببقية دول العالم النظر إليه باهتمام بالغ.

وقد تأثرت المكتبات العامة الروسية بالمكتبات الأمريكية أكثر من تأثرها بالمكتبات الأوروبية. وأغلبها يستخدم نظام ديوي العشري. وقد جرى إعداد نظام ماركس للتصنيف الذي يعكس وجهة النظر الشيوعية في المعرفة الانسانية وبدأ العمل به. وإن العمل البيبليوغرافي والخدمة البيبليوغرافية ذات مستوى رفيع في روسيا.

لقد تنوعت حركة نمو وتطور المكتبة العامة في أوروبا تنوعاً كبيراً وذلك بسبب الوضع السياسي المتغير بسرعة الذي تم في أوروبا خلال حربين عالميتين. فقد وصلت أغلب دول أوروبا سنة ١٩١٤م إلى حد الاعتراف أن شكلاً من أشكال الخدمة المكتبية العامة المدعومة شيء مرغوب فيه.

وإن المرء يلاحظ من خلال ما مر، أن المكتبات العامة في أوروبا ظلت قرابة أربعة قرون (١٥٠٠-١٩٠٠) بدون تطور يذكر، على حين أن نموها وتطورها كان متسارعاً في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين. لقد ظلت هذه المكتبات تحوي كنوزاً لا مثيل لها في جميع حقول المعرفة، ولكنها كانت موجودة في أماكن غير مناسبة إطلاقاً ومهملة وقلما تستعمل. ولقد ساعد ظهور مكتبات الاعارة ومكتبات الاشتراك على نمو وتطور الخدمة المكتبية العامة المجانية. كما وأن الاعتقاد أن مكتبات البحث هي الوحيدة التي تستحق الاعتبار والاهتمام ، وأن روادها وحدهم هم الذين يستحقون اسم علماء وباحثين قد عاق تقدم ونمو المكتبة العامة، إلى جانب قصر ساعات العمل وسوء تنظيم المجموعات المكتبية العامة وقلة الموظفين وعدم قدرتهم الفنية. وتختلف الخدمة المكتبية التي تقدمها

مكتبات أوروبا الغربية عن تلك التي تقدمها مكتبات أوروبا الشرقية، ولكن، وبالرغم من هذا الاختلاف ، فإن الصورة النهائية للمكتبات العامة في أوروبا والخدمات التي تؤديها هي صورة مشرقة من التقدم المطرد والاهتمام المتزايد.

وهناك خطط كثيرة للاستفادة من خبرات العصر ووضعها في خدمة المكتبات العامة لتؤدي خدماتها المكتبية إلى الرواد المتزايد عددهم لسد الحاجات ا لمتزايدة إلى معرفة التقنية المتطورة والإعلام المتوسع باستمرار. ولقد بدأت أوروبا تجرب وتطبق الأسلوب الأمريكي في الخدمة المكتبية العامة، ولكن ليس من الضروري أن تأخذ هذا النظام بحذافيره. فما يصلح لأمريكا قد لا يصلح لغيرها. هذا وإن النظام الأمثل هو النظام الذي يناسب الشعب ككل أكثر من غيره، ويقدم له أفضل خدمة مكتبية ممكنة، ويوصل له الكلمة المطبوعة حيثما كان.

obeikandl.com